مقتطفات بيانية من أساليب المجانسة في الأحاديث النبوية

الدكتور مصباح تجاني رابع
mtrabiu@nda.edu.ng

المدخل:

إن تقسيم علوم البلاغة إلى فنون ثلاثة: البيان والمعاني والبديع، جعل كثيرا من الطلاب والباحثين يرتاحون إلى أن كل فن- من الفنون البلاغية – مستقل في نفسه، وقد يكون هذا صحيحا وخاصة للطالب الناشئ، إلا أن الدراسة البلاغية السليمة تلغي هذا التقسيم؛ لكون هذه الفنون متداخلة بعضها في بعض، فلكي يعطى كل نص ما يستحقه من التحليلات الجادة فلا بد من مراعاة الترابط التام علما بأن هذه الفنون ينهض بعضها بعضا في بناء شكل الكلام ومعناه وترتيب صوره؛ وعلم البيان مثلا يهتم بوجوه دلالة الكلام وطريقة أدائها في طرق فنية مختلفة حتى يستقر المعنى في ذهن المتلقي في صورة حسية وصورة ذهنية حسب مقتضى الحال والمقام،وأما البديع فيعنى بأوجه وضع الأنماط العالية من الكلام شريطة إيراده هذا في صورة تحسينية رشيقة ناصعة، لها وقعها في السمع وأثرها في النفس، والمعاني هو لب هذين العلمين، لأنه يتوخى أحوال اللفظ العربي من حيث المطابقة لمقتضى الحال. وتقصد هذه المقالة إلى دراسة مزدوجة لأنها تتناول نصوصا واردة في صور الجناس مع الخوض في جوانبها البيانية، وقد كرس الباحث اهتمامه في هذه المقالة على أساليب الاستعارة والمجاز العقلي بصورة وجيزة مع التعرض لما في هذه الأساليب من الحلي اللفظي.

يأتي علم البيان دائما في محل الصدارة عند الكلام عن البلاغة بصورة عامة، ودلالة الكلام فيه متنوعة،فهو مجال واسع للافتراضات والتأويلات، ويعتمد فيه كثيرا على

العلاقات الملحوظة بين المعنى الأصلي المألوف والمعنى الفرعي البلاغي الذي يتمثل في الاستعارة والمجاز المرسل،وكذلك في الإسناد كما في المجاز العقلي والكناية، وفي كل لا بد أن يكون هناك علاقة. والعلاقات في الاستعارة لا تعدو المشابهة في حين أن المجاز العقلي له عدة ملابسات، فأساليب البيان بصورة عامة لا تأتي عبثا، بل هي مرهونة دائما بغرض معين يهدف إليه المتكلم.

وأغراض الكلام كثيرة لا تكاد تحصى، وقد تكون وقفا على فهم المخاطب وذوقه وثقافته وقوة إدراكه. ويمكن إرجاع معظم الاختلافات في فهم النصوص الأدبية والشرعية إلى هذه الحقيقة.

وأما الجناس الذي هو فن من فنون البديع فلا يستحسن إلا إذا كان اللفظ فيه يساعد المعنى،وترسل المعاني على سجيتها لكى تكتسي من الألفاظ ما يحسنها، ويجعل الرونق فيها حتى لا تتسم بالتكلف والتصنع، ولا يسع الباحث تناول صور الجناس بجميع أنواعها للاستشهاد، بل يكفي التعرض لبعضها حسب الظروف.

والجناس، أو المجانسة في الأحاديث النبوية، هي قمة أنواع الجناس التي تعرفها اللغة العربية من حيث الملاءمة لروعة المعاني، والمطابقة لمقتضى الحال، وستتركز المقالة على مقتطفات من الأحاديث النبوية لبلورة هذه الظاهرة بناء على المنهج التحليلي، مع الارتكاز على عنصرين بيانيين: الاستعارة والمجاز العقلي للوصول إلى الفوائد العامة التي تحكم الدراسة.

الاستعارة:

للاستعارات تعريفات عدة عرفها بها علماء البلاغة قديما وحديثا منهاما يلي:

"الاستعارة في الجملة أن يكون اللفظ في الوضع اللغوي معروفا، تدل الشواهد على أنه اختص به حين الوضع، ثم استعمله الشاعر، أو غيرهفي غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم له، فيكون هناك كالعارية"[١].

تأتي الاستعارة في الكلام العربي لتفيد أغراضا بلاغية عدة، منها التهكم، ويصادف القارئ أن التهكم يأتي أحيانا في أساليب المجانسة.

فالتهكم معناه التهزأ، يقال تهكم به؛ معناه تهزأ به، ويقال فلان ألقى كلامه على سبيل التهكم، أي تهزأ[٢].

ويعني التهكم؛ السخرية، وهي اتخاذ الغير أضحوكة. وقد ورد كثير من الاستعارة التهكمية في القرآن الكريم حيث يذكر في الكلام شيئين نقيضين، هذا شر وهذا خير، فكثيرا ما تأتي البشارة لكليهما ويلمس ذلك في تبشيره تعالى الكفار بالعذاب في قوله: (فبشرهم بعذاب أليم)، وقد ذهب عبد القاهرالجرجاني إلى أن العرب تستعير كلمة الحي للميت الذي خلد ذكره، كما تستعار كلمة الميت للحي الذي لا نفع له[٣]، وكان الزمخشري يسمي هذا بالمعاكسة[٤]. ومن الأحاديث النبوية التي جاء فيها هذا التحسين اللفظي على وجه الاستعارة التهكمية ما يلي:

عن ابن مسعود قال:(عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة. وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا)[٥]

التحليل:

فهذا الحديث ترغيب وحثّ وتحريض للمؤمنين الذين آمنوا برسالة نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم بأن يتحلوا بالأخلاق الحميدة الفاضلة التي تميزهم عن غيرهم من سائر الخلق، وعلى صدراة هذه الأخلاق الحميدة الفاضلة الجرأة على القول الحق، والإخلاص في العمل؛ لأن الأمور كلها لا تكاد تتم في أحسن وجهها إلا بهذه الخليقة النبيلة. عليك بالصدق أمر موجه إلى المسلمين بالعض عليه بالنواجذ وإن قل قائلوه والمتمسكون به، بل يجب أن يستهينوا في سبيله كل الصعوبات والتحديات؛ لأن العاقبة

مهما يدر الأمر تكن فوزا ونجاة في الدار الآخرة، كما أن الحديث من جانب آخر تهديد وتحذير من الكذب، لأن خاتمة المطاف لمن يتعاطى هذه الخصلة الذميمة تكون وخيمة وعذابا أليما. وكما أن المؤمن مأمور بالصدق والاجتهاد لما فيها من الرحمة، فإنه منهيّ في نفس الوقت عن الكذب والخوض فيه لما فيه من غضب الله ونقمته.

والنكتة هنا في قوله إن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار "حيث أسند الهداية إلى الكذب وإلى الفجور، لأن المألوف والمتبادر إلى الذهن هو استعماله في الخير والصلاح كالهداية إلى البر وإلى الجنة، ولكن استعملت في عكسهما، لغرض بلاغي، وهو تهكم في صورة الاستعارة التي جاءتعلى سبيل المقابلة والمعاكسة، حيث يستعار الشيء ليدل على نقيضه تهكما، ومن هذا القبيل أيضا قوله صلى الله عليه وسلم:

عن عائشة: (إذا أراد الله بعباد خيرا يرزقهم الرفق في معايشهم وإذا أراد بهم شرا رزقهم الخرق في معاشهم)[٦].

يشير الحديث إلى مشيئته تعالى في عباده، وأن ما قضاه هو الثابت، وقد قسم لكل عبد من عباده معيشته، ومنهم من كتب له السعادة كما أنه منهم من كتب عليه الشقاوة، يعامل السعيد الذي وفقه بالرفق واللين، كما يعامل الشقي بغيرهما. وإذا أراد بعبده خيرا يسهل له طرق المعاش في الدنيا ويلهمه القناعة واللجوء إليه والاستعانة به، فيعينه على ما يريد ويوفقه إلى خيراته. كما أنه يرفع عن عبده هذا الرفق واللين إذا أراد به شرا، بل يكله إلى الشؤم واللجوء إلى غير الله.

والنكتة هنا في قوله رزقهم الخرق، حيث أن الخرق وهو الشؤم: شيء سيئ، واستعمال الرزق فيه استعارة، وهي استعارة تضادية والكلمة هنا تعني ابتلاهم، استعيرت الكلمة لتدل على ضدها. كما أن الرزق في قوله "رزقهم الرفق"، تعبير حقيقى مألوف. لأن الرفق من المرغوبات التي يرجى أن يرزق الله الإنسان به.

وفي استعارة كلمة الرزق لتدل على معنى الابتلاء، أو المصيبة مجانسة لكلمة الرزق التي جاءت في معناها المألوف. كما أنه من الملاحظة مقابلة بين طرفي الحديث بذكر لفظ الجلالة مع الرفق، لأن المقام مقام النشوة والفرح الداعي إلى التبشير والترغيب.

وفي حديث آخر، **عن ابن مسعود: (إذا أثنى عليك جيرانك أنك محسن فأنت محسن، وإذا أثنى عليك جيرانك أنك مسيء فأنت مسيء)**[٧].

يفهم من هذا الحديث أن المسلمين يشهد بعضهم على بعض، وأقوى الشهادة هي شهادة جار صالح على جاره، وإذا شهد له بخير فهو محسن، فيكون الخير هو جزاؤه، وإذا شهد عليه بغير ذلك فهو مسيء، فالشر جزاؤه.

المجاز العقلي:

عرفه السكاكي بأنه الكلام المفاد خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأويل أفاده للخلاف بواسطة وضع، ويكون في الإسناد، أي في إسناد فعل إلى غير ما هو له. وقد يسمى بالمجازي الحكمي، أو الإسناد المجازي[٨].

للمجازي العقلي في الكلام العربي أغراض بلاغية حيث إن ميزته البلاغية تكون من حيث الإسناد.

ويعنى به إسناد، أو إضافة شيء هو من خصائص أحد إلى قريب له، كإسناد، أو إضافة شيء من خاصية الله تعالى إلى عبد من عباده لما لهذا العبد من القرب لله والاختصاص به. ومثل هذا الأسلوب يأتي كثيرا في القرآن. وكثير ما يرى في القرآن أن الله سبحانه وتعالى يتولى عملا من أعمال عباده كأنه هو الذي فعل بنفسه وتجده كذلك يجعل وصفهم وصفه، وأمرهم أمره، وحالهم حاله، ونصرهم نصره، ومن عاداهم كأنه عاداه، فذلك من الأساليب البلاغية التي تشير إلى الملابسة بين الفاعل الحقيقي المقصود والفاعل المجازي المذكور، أو المفعول الحقيقي الذي وقع عليه الفعل حقيقة، والمفعول المجازي المذكور. ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى:" إلا امرأته قدّرنا إنها لمن الغابرين" (الحجر: ٦٠)،وقد

أسند الملائكة فعل التقدير وهو لله وحده إلى أنفسهم حيث لم يقولوا قدر الله لما لهم من القربي والاختصاص وعلو الدرجة لديه[٩]. ومن أمثلته من الحديث القدسي حيث يقول الله سبحانه وتعالى:(عبدي مرضت ولم تعدني، فيقول العبد: كيف أعدك وأنت رب العالمين، فيقول الله: إن عبدي فلانا مرض فلم تعده، أما لو عدته لوجدتني. عبدي جعت فلم تطعمني. فيقول العبد: كيف أطعمك وأنت رب العالمين، فيقول: أما علمت أن عبدي فلانا جاع فلو أطعمته لوجدت ذلك عندئذ..))[١٠]إلخ. فقد جعل الله هنا جوع عبده ومرضه جوعه ومرضه، لأن العبد موافق فيما يحب ويرضى ويأمر وينهى بما يحب الله. وهو بهذا مقرب إلى الله. ومن الأحاديث النبوية التي جاءت المجانسة فيها في صورة المجازي العقلي لتفيد هذا الغرض البلاغي هذه الأحاديث التالية:

١– عن أبي هريرة: "إن العرافة حق، ولا بد للناس من العرفاء، ولكن العرفاء في النار"[١٢].

إن تدبير أمور الناس وسياستهم شيء واجب وضروري حتى يستقر النظام الاجتماعي الإنساني، وهو الفارق الأساسي بين المجتمع الإنساني والبهيمة. والناس على اختلاف أديانهم وأجناسهم وأقطارهم وميولهم وقفوا على هذه الضرورة الإنسانية، ولكن قل من يعولون شؤون القوم ويؤدون ما حمل على أعناقهم من الواجبات على أحسن وجهها لما طبع عليه الإنسان من الاستبداد والظلم والتعالي على من تحته، لذلك يحكم هذا الحديث على العرفاء – أي السادة في النار تغليبا للأكثر.

والتجوز هنا يكون في النسبة بين المبتدإ والخبر في قوله "العرفاء في النار"، وفي حذف المضاف في المبتدإ أي بعض العرفاء، أو أكثر العرفاء"،وقد أطلق اسم الجنس وهو في الحقيقة يعني بعضه، لما يحتويه الجنس من الشمولية، ومثال هذا قولهم: بنو فلان فلان قتلوا فلانا، وإنما القاتل رجل منهم. والنكتة هنا بين قوله بين العرفاء بالمعنى الحقيقي والعرفاء بإسنادها المجازي الذي جاء بمعنى البعض.

٢- إن "أُحدا" جبل يحبنا ونحن نحبه وهو على ترعة من ترعة الجنة وعير على ترعة من نزع النار[١٣].

يذكر الحديث جبلين يكونان في المدينة المنورة، كلاهما آية من آيات الله في الأرض، وهما جبل أحد؛ذلك الجبل الشهير في التاريخ الإسلامي وجبل عير. وبينما يكون جبل أحد رمزًا لرحمة الله على عباده يكون جبل عير من وجه آخر رمزا لنقمة الله وعذابه، ولذلك وصف جبل "أحد" بأنه على باب روضة من رياض الجنة في حين أن جبل "عير" على باب من أبواب النار. فالنظر إلى كليهما يكفي المؤمن بشارة وإنذارًا. والأحد يبشر بالجنة، وجبل عير ينذر بالنار، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فإن أحدا جبل يجبنا)). وهنا تشخيص وتجسيد لشيء يعتبر جمادًا، تعظيما لشأنه، لذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ونحن نحبه) بمعنى نبادله حبا.

وفي إسناد الحب إلى الجبل وهو مكان إسناد مجازي، وهو مجاز عقلي، ويقع أيضا مجانسا لقوله (ونحبه). وإسناد فعل إلى مكان من أنواع المجاز العقلي، وهو شائع في الكلام العربي الفصيح. وقد أشار الزمخشري إلى هذا النوع من المجاز العقلي تحت مصطلح المجاز الحكمي[١٤]،فيرى أن مرجع الحسن فيه هو أنالحدث يقع منالمكان، وفيه من المبالغة وقوة التأثير ما ليس في غيره.

٣- "من لم يطهره البحر فلا طهّره الله"[١٥].

في هذا الحديث إثبات لحكم شرعي في ماء البحر أنه طاهر مطهر، ومن أنكر ذلك فإنما ينكر سنة من سننه صلى الله عليه وسلم، والدعاء عليه جدير به، فلذلك جمل الحديث دعاء صريحا على من ينكر هذه السنة من السلف.

وفي إسناد التطهير إلى البحروهو مكان، إسناد مجاز عقلي لأن الماء هو الذي يطهر، مثال ذلك قوله تعالى: " جنات تجري من الأنهار"،فهذا من باب إطلاق المحل

والمراد به الحال. ويلاحظ المجانسة بين التطهير الأول والثاني لتشكيل دلالة إيقاعية خاصة ذات معان مقصودة.

٤- عن أبي هريرة رضي الله عنه: "لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه"[١٦].

يفهم من هذا الحديث أن الخشوع هو اللين والانقياد فمحله هو القلب، وهو أجدر أن يكون في الصلاة، أو الذكر، أو أي مناجاة بين العبد وربه. وقد وصف الله عباده الذين تخشع قلوبهم بذكر الله بأنهم هم المفلحون، وإذا خشع القلب يستجيب الجسم ويرى أثر الخشوع فيه؛ لأن القلب بمنزلة الراعي والجسم بمنزلة الرعية، وإذا صلح الراعي صلح حال الرعية لوجود رابطة ربانية بين الجسد والقلب، حيث إنه إذا صلح القلب صلح الجسد. والجسم بمنزلة ترجمان لما في القلب، والحديث وإن كان موجها إلى رجل معين صلى أمام الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو حث وإلفات الناس إلى ما في الخشوع في الذكر من الأهمية.

ولما كان الخشوع محله القلب، فإسناد الخشوع إليه إسناد عادي مألوف ويعتبر هنا إسنادا حقيقيا مألوفا. وأما إسناده إلى الجوارح فإنه بمثابة إسناد إلى الآلة مما يسمى المجاز الحكميعند الزمخشري.[١٧] وهو من أنواع المجاز العقلي. لذلك فإن في قوله خشعت جوارحه، تحسين لفظي في صورة بيانية مجانسة لقوله خشع القلب، جاء مجازًا عقليا، لأن الجوارح لا تخشع، بل يرى أثر الخشوع فيها،والعلاقة بين القلب والجسم علاقة آلية.

٥- عن عياض بن غنم: "إن الله تعالى يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس في الدنيا"[١٨].

يهدد ويزجر هذا الحديث الذين ينتهكون حرمات الناس ويتعاطون صنوف البطش على غيرهم ظلما،جراء ما يمتلكون من القوة والسلطنة في هذه الحياة الدنيا، فالله تعالى متكفل الانتقام لهؤلاء المظلومين فيجازي الظالمين بما يليق بصنيعهم يوم القيامة. وقد جاء زجره تعالى بأداة التأكيد "إن الله"، مشيرا إلى أن تعذيبه المعذبين ظلما شيء واقع لا محالة،

وقد عبر عن الاعتداء وجزائه في صيغة المقابلة. مبينا أن عذابه تعالى في اليوم الآخرة سببه الظلم في الدنيا.

والواقع، أن الملائكة الموكلين بتعذيب المعتدينهم من يقومون بعملية التعذيب للمعتدين بأمره تعالى، ففي إسناد التعذيب لهمجاز عقلي؛ لأن التعذيب يحصل بأمره، والإسناد في الأول – إذن – مجازي، وفي الثاني حقيقة جاءت مصاحبة لقوله: " إن الله تعالى يعذّب ... يعذبون الناس".

٦– عن أنس:من روع مؤمنا لم يؤمن الله روعته يوم القيامة، ومن سعى بمؤمن أقامه الله مقام ذل وخزي يوم القيامة[١٩]

يفهم من هذا الحديث أن المؤمن محبوب عند الله، ويظفر دائما بنظرة تجعله في دائرة لطفه وعنايته تعالى، ويتولى شأنه في كل إساءة تهدف إليه.

يبين الحديث أن عذاب الله ونقمته معَدّ لكل من كانت ديدنته تخويف المؤمنين وإلقاء الأذى بهم، ويحذر الرسول صلى الله عليه وسلم كل من يخوف المؤمن بأي وسيلة من وسائل التخويف، سواء بصورة حسية، أو معنوية بأن الله ينفي عن قلبه الاطمئنان.

والنكتة في استعمال كلمة "روعته"هي أنها وتعني هنا القلب الذي هو محل الروعة، وهي من باب إطلاق الحال والمراد به مجاز عقلي. جاءت كلمة "روعة" مجانسة ومصاحبة لكلمة "روع بمعناها الحقيقي.

الخاتمة:

يتجلى فيما سبق ماتتسم به الأحاديث النبوية من الزخرف اللفظي وحسن المعاني، خالية من التعقيد والتكلف، وتمثل هذه المقتطفات من صور المجانسة أمثلة رائعة للإيجاز المقنع الذي هو لب البلاغة، لكون الأحاديث المختارة منضوية على معان عدة في ألفاظ قليلة، وقد توصل الباحث عقب هذه الجولة في هذه إلى نتائج منها:

- كون الفنون البلاغية متداخلة بعضها البعض.

- اعتبار البلاغة والأدب توأمين، وقد قيل قديما "إن البلاغة وليدة النقد الأدبي".
- تمثيل الأحاديث النبوية كنزا وفرا لدارسي اللغة العربية وبلاغتها، مشتملة على ما يثير الأفكار والخيال، ويدعو إلى إعمال الفكر.
- جعل التحليل البلاغي للنصوص القرآنية والأحاديث النبوية، حصنا رصينا يصون الباحث من الورطة في إسناد شيء مما لا يليق به تعالى إلى ذاته، كالمكر والخديعة والكيد والاستهزاء والظلم والنسيان وما إلى ذلك.

الهوامش والمراجع:

١- الجرجاني، عبد القاهر: **أسرار البلاغة**، دار المعرفة، ط: ٨، بيروت ١٩٧٨، ص٢٢.
٢- الزمخشرس، محمد بن عمر: **أساس البلاغة**، المكتبة العصرية، ٢٠٠٥، ص٩٤١.
٣- الجرجاني، المرجع السابق، ص٥٢ – ٥٩.
٤- الزمخشرس، محمد بن عمر:**الكشاف، في حقائق التنزيل**، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ص١٢٥.
٥- المناوي، **فيض القدير**، شرح الجامع الصغير، مكتبة، مصر، الفجالة، حديث رقم ٥٥٣٦، ص١.
٦- المرجع نفسه، حديث رقم٣٩٤.
٧- المرجع نفسه، حديث رقم٣٥٠.
٨- السكاكي يوسف بن محمد: **مفتاح العلوم**، دار المكتب العلمية، بيروت، ص٢٠٨.
٩- الزمخشري، المرجع السابق والصفحة ذاتها.
١٠- يونس محمد كبير، **ظاهرة التأويل في القرآن**، قسم الدراسات الإسلامية جامعة بايرو كنو ٢٠٠٣، ص ٢٠.

١١- المناوي، المرجع السابق، حديث رقم ١٩٢٧.

١٢- المناوي، المرجع نفسه، حديث رقم ٢٠٧٥.

١٣- المناوي، المرجع نفسه، حديث رقم ٨٩١٢.

١٤- سورة البقرة، الآية:٢٦٢.

١٥- أبو موسى، **البلاغة العربية في تفسير الزمخشري**، مكتبة وهبة، ط٣، القاهرة، ١٩٩٧م، ص١٢٠.

١٦- السيوطي، عبد الرحمان، **الجامع الصغير**: ١٤٥/٤.

١٧- المناوي، المرجع السابق، حديث رقم ٧٤٤٧.

١٨- المناوي، المرجع نفسه، حديث رقم ١٩١٦.

١٩- المناوي، المرجع نفسه، حديث رقم ٨٧١٤.